وأخيراً النون

للعلامة الشيخ عبد القادر المغربي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

كان بيني وبين بعض الفضلاء نزاع طويل حول كلمة (انسكلوبيدى) Encyclopédie اليونانية الأصل واختيار كلمة عربية تقوم مقامها

والانسكلوبيدى لفظ وضعه الافرنج للدلالة على المعجم الذى يتضمن كل فن ومطلب من مطالب ثقافات الامم ومقومات حضارتها: فيه كل شيء ماعدا اللغة ، فان كلماتها تكفل ببيانها معجم آخر يختلف اسمه باختلاف اللغات .

ولما وضع العلامة البستانى معجمه العربى الجامع لكل فن ومطلب وضع له اسما عربيا مفردا ، ثم بدا له فغيره الى اسم آخر مركب من كلمتين . وتتابعت بعده الاسماء والأوضاع على هذا النمط .

(١) الكوثر
(٢) دائرة المعارف | بطرس البستانى ، سورية ، سنة ١٨٧٦ م
(٣) لغات تاريخية وجغرافية : أحمد رفعت افندى ، الاستانة ، سنة ١٨٨٢ م
(٤) مصور دائرة المعارف : على سيدى ومحمد عزت وعلى رشاد ، الاستانة ، سنة ١٩١٤ م
(٥) موسوعة : ابراهيم اليازجى (سورية)
(٦) كنز العلوم واللغة | فريدوجدى ، مصر ، سنة ١٩٠٧
(٧) دائرة معارف القرن العشرين | سنة ١٩٢٣
(٨) محيط المعارف : امر الله افندى ، الأستانة ،
(٩) معلمة : الاب انستاس الكرملى ، بغداد ،
(١٠) النون

واشتد الجدل فى اختيار أفضل هذه الكلمات وأحقها بالقبول ، ثم اتفقنا على اهمال ما كان مركباً منها كدائرة المعارف ، أما المفردات فالكوثر لا تدل على المراد من « الانسكلوبيدى » كالايخفى ، و « موسوعة » مختلف فى أصلها وسلامة عروبتها ، فلم يبق الا كلمة « معلمة » التى تدل على معنى « وعاء العلم » .

ثم عادت المناقشة فاشتدت حول قبول « المعلمة » وعدم قبولها ، وحجة رافضيها انها انما تدل على كتاب فيه علم ولا تدل على معنى الشمول والاحاطة كما هو المقصود من (Encyclopédie)

فرد هذا الاعتراض بان « المعلمة » تدل على معنى الكثرة لكونها مصوغة على وزن « مَأسَدَة » و « مَسْبَعَة » ، و « مَذْأَبَة » ، و « مَقْثَأة » ، و « مَلْصَّة » أى أرض كثرت فيها الأسود والسباع والذباب والقثاء واللصوص . وقال الأب أنستاس « المعلمة » فيكون قد أراد انها كتاب كثر فيه العلم .

فقى بعض الاخوان مصراً على رفض « المعلمة » مستدلا بان كلمة « مسبعة » واخواتها الدالة على الكثرة انما هى صيغ خاصة وقعت للعرب فى وصف الارضين والاماكن وحدها ، حتى ان ابن سيده عقد لهذه الكلمات فى مخصصه - جزء ٣ ، ص ٢٠٥ - بابا عنونه بقوله (باب مفعلة من صفات الارضين) . فكيف يصح لنا أن نجعلها من صفات الكتب ؟ فلم يبق الا أن تكون صيغة - معلمة - كصيغة - مقلمة - بالقاف بمعنى وعاء الاقلام . وهذا يضعف من أمر اختيارها لتحل محل - انسكلوبيدى -

فقال بعض الاخوان : ان الياس بك القدسى (عضو مجمعنا العلمى العربى بدمشق) كان أشار بوضع كلمة (النون) فى مقابل الانسكلوبيدى مستدلا بما جاء فى معجم المستشرق المشهور (كازيمرسكى) مترجم القرآن الى الافرنسية - من ان (النون) فى اللغة العربية تكون بمعنى (الانسكلوبيدى) الأعجمية .

فعجبت من قوله ، لأن (النون) ان كان المراد بها حرف الهجاء فلا علاقة لها بمعنى (الانسكلوبيدى) وان كان المراد بها كلمة (النون) التى من معانيها السيف والحوت والدواة فانها أيضا لاعلاقة لها ظاهرة بالانسكلوبيدى

ولم يتيسر لى يومئذ أن أراجع معجم (كازيمرسكى) العربى الافرنسى ، حتى وقعت لى نسخة منه منذ أيام ، فوجدته يقول ومن معانى (النون) خلاصة جميع العلوم Résumé de toutes les sciences ولم يذكر كازيمرسكى صراحة ان النون تطلق على الانسكلوبيدى ، فعلمت ان الياس بك (رحمه الله) انما استنتج كلمة الانسكلوبيدى من قول (كازيمرسكى) استنتاجا . فبقى عالقا فى حفظه أنه من قول (كازيمرسكى) نفسه . وحق له هذا الاستنتاج لأن كلمة (النون) اذا كانت بمعنى خلاصة علوم البشر كانت جديرة بان تطلق على الكتاب الذى يضم بين دفتيه خلاصة علوم البشر .

وقد ازددت حرصاً على معرفة المصدر الذى اعتمد عليه كازيمرسكى فيما ذهب اليه . فلم أظفر بشئ فى المعاجم اللغوية العربية ، لكنى رأيت « السيد الجرجانى » يقول فى كتابه التعريفات مانصه : (النون هو العلم الاجمالى . يريد به الدواة ، فان الحروف التى هى صور العلم موجودة فى مدادها إجمالا . وفى قوله تعالى (ن . والقلم) هو العلم الاجمالى فى الحضرة الاحدية . والقلم حضرة التفصيل اه)

فى هذا القول رموز لغة وتفسير وعقيدة وتصوف ، ألف بينها لحام دقيق يمكن تفكيكه على هذه الصورة:

ان حرف « ن » فى الآية اريد به إجمال او خلاصة للعلم البشرى وان (القلم) الذى ذكر بعد « ن » هو الكفيل بتفصيل ذلك العلم الاجمالى . وان حرف « ن » إنما جاء معنى العلم الاجمالى من كونه حرفا من حروف الهجاء . وحروف الهجاء يتركب منها جميع الكلام الذى يدل على علوم البشر التى انما يصورها الكاتب بمداد الدواة . فعلوم البشر مدبجة فى الدواة ، والدواة رمز يذكر بمجموع علوم البشر وثقافتهم فى التمدن القديم ، كما ان (المطبعة) رمز يذكر بمجموع علوم البشر وثقافتهم فى التمدن الحديث

ثم تراجع كتب اللغة والتفسير فنجد بعض المفسرين يفسر « ن » فى آية « ن ، والقلم وما يسطرون » — بحرف النون الهجائى ، كما فسروا بقية الحروف الهجائية فى مفتتح السور الاخرى . ونجد الحسن البصرى يفسر (النون) بالدواة . فنتفطن الى ان الحسن رضى الله عنه لم يرد بالنون حرف النون الهجائى ، وانما اراد كلمة « النون » ، ولكن الحسن البصرى السلفى العظيم الذى عاش مع فصحاء العرب وبلغاء الصحابة رضوان الله عليهم — يفسر (النون) بالدواة من دون ان يكون له دليل يستند اليه

نبحث فنجد ان الحبر ابن عباس رضى الله عنه يفسر النون فى الآية بالحوت وهو سمكة البحر ، كما هو احد معانيها اللغوية . فنتفطن أيضا الى أن تفسير (النون) بالدواة — وهو ماذهب اليه الحسن البصرى — انما جاء من جهة تفسير ابن عباس لها بالحوت

ويبقى فى المقام إشكال : وهو ماهى علاقة الحوت بالدواة ؟ راجع المفسر النيسابورى فنجده يقول فى صدد تفسير الآية : انه يروى عن بعض الثقات أن أصحاب البحر (ويريد بهم أصحاب الصناعات الخفية أو الدقيقة) يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً أسود كالنفس (أى الحبر) أو أشد سواداً منه يكتبون به أه .

ولا يخفى ان الاخطبوط أو غيره من حيتان البحر يستخرج منه سائل كان الاقدمون يعالجونه ويليقونه بما يجعله صالحاً للكتابة به

وهكذا نرى ابن عباس يفسر النون فى الآية بالحوت ، ولكن أى حوت ؟ ذهب بعض المفسرين الذين يحبون الاغراب فى كلام الله تعالى الى ان المراد به (الحوت) أخو (الثور) اللذان كانا وما زالا ينوآن بحمل الارضين السبع !!

غير ان الحسن البصرى رضى الله عنه ما كان يعجبه من قصاص المساجد أن يذهبوا فى تفسير الوحى الالهى هذا المذهب فى الاغراب والتهويل . إذ أن التسامح فى ذلك بقصد التأثير فى نفوس الدهماء من العامة إنما يسر عاجلا فانه يسوء آجلا .

وهذا ماحمل الحسن البصرى على تفسير (النون) بالدواة تأييداً لابن عباس رضى الله عنه فى تفسيره للنون بالحوت .

أما إطلاق (الحوت) وإرادة الحبر منه فله شواهد كثيرة من اللغة العربية التى يتسع صدرها لأمثال هذا الاطلاق . بل ربما كان له شواهد ايضا فى اللغات الاخرى ، وها نحن اليوم نقول فيقبل (المدينة الافرنسية) ونريد ماءها المعدنى الذى يباع فيها — وكولونيا (المدينة الالمانية) ونريد ماءها المعطر الذى يصنع ويجلب منها — وجنيه « بلاد غينيا » ونريد الدينار المصرى الذى استخرج ذهبه من معادنها — ويقول العرب « نون » أى حوت ، ويريدون الحبر الاسود الذى يستخرج من سائله — وأنزل القرآن بلغة العرب وعلى مناحيهم فى أساليب البلاغة ، فافتتحت السورة بالقسم على براءة النبى صلى الله عليه وسلم مما قاله المشركون فيه وتنبيه المخاطبين الى عظيم فضل الله على البشر منذ هداهم الى التسطير والكتابة ، والى استخدام أدواتها من حبر وقلم . فكان ذلك سبباً لما بلغوا اليه من علم وحضارة وثقافة .

ولم أرد أن أحقق هنا معنى الآية الكريمة ، ولا ما هو الأصح المعتمد فى تفسيرها ، فان ذلك مبين فى تفسيرى على « جزء تبارك » المهيأ للطبع — وانما أردت أن أبين المصدر الذى استقى منه « كازيمرسكى » القول بان النون تدل على خلاصة علوم البشر حتى رأى الياس بك القدسى أنها تصلح لان تقوم مقام الانسكلوبيدى

ولا سيما أنه فى الامكان تناول مشتقات مختلفة منها : فيقال مثلا (تنوّن تنويناً) (منوّن) (منونون) وتونت فيقال (التونة) الافرنسية (والتونة الالمانية) والتونة العربية وينسب اليها فيقال فلان صاحب تون و تونى Encyclopédiste

دمشق — المغربي